الفصل الثامن

عصر الأسلحة النارية وتجارة الرقيق

١- شمالي أفريقيا وغربيها

كان نتيجة انتشار الدين الإسلامي في الثلث الشمالي للقارة دخول جزء كبير من أفريقيا- أكثر من أي عصر من العصور- في التاريخ الإنساني.

وفي الوقت نفسه أصبح البحر المتوسط- وهو مكان مناسب لالتقاء الأفريقيين والآسيويين والأوروبيين والتقاء علومهم وأفكارهم- هو الحد السياسي والنموذجي بين القوى الإسلامية والمسيحية. ولم تخسر أفريقيا من ذلك إلا القليل، بل إن ما كسبته من الحضارة الإسلامية يفوق ما فقدته من عدم اتصالها، وعلى كل حال لم يقم البحر المتوسط حائلًا أو ستارًا حديديًّا؛ فقد حمل الصليبيون كما حمل البحارة الإيطاليون تجارتهم وتجارة أوروبا إلى مصر والمغرب وتبادلت المنفعة ثم ازدادت تجارة أوروبا بفضل تجار البندقية الذين حققوا نجاحًا أكثر من منافسيهم في توطيد العلاقات الطيبة مع المسلمين واستمرت صادرات أفريقيا، بما في ذلك الذهب، وكذلك صادرات آسيا عن طريق مصر تصب في أوروبا.

وظهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قوى أخرى جديدة مؤثرة في أفريقيا تولدت من اتحاد التعاون الاقتصادي مع الشؤون

العسكرية والحربية وأصبحت أفريقيا الشمالية تمثل الحاجز الشمالي للقارة أكثر من أي وقت مضى.

ودخلت أجزاء أخرى من القارة في دائرة النشاط الأوروبي، إذ زاد طلب الأوروبيين للرقيق. كما تلقت أفريقيا مزيدًا من الأسلحة النارية التركية والأوروبية التي أدت في النهاية إلى اختلال ميزان القوى بين أقطار أفريقيا.

وأول تلك القوى التي ظهرت أسبانيا والبرتغال في غربي أوروبا وأخذتا في مطاردة المسلمين عبر مضيق جبل طارق بعد أن جاهدتا طويلًا في حرب مريرة لتخليص شبه الجزيرة من الإسلام. وعلى الرغم من النجاح الذي أحرزه شعب الأندلس ضد المسلمين، فإنهم عجزوا عن هزيمة مراكش.

وفي نهاية القرن السادس عشر تجمع المراكشيون حول الأسرة الحاكمة (السعيديين) كنتيجة لهجمات البرتغاليين عليهم. وعلم البرتغاليون أن وراء الصحراء الكبرى تقع غينيا أرض الذهب وأن تجارة وملاحة العرب البحرية تصل إلى شرقي أفريقيا، كما علموا من العرب أن القارة يحيطها البحر. شجعت هذه المعلومات إلى جانب المعاونة الفنية للبحارة الإيطاليين على فك الحصار الإسلامي بغزو أفريقيا بحريًّا. وبذلك تغنم البرتغال ذهب غينيا وتتمكن من تحطيم سيادة المسلمين على تجارة المحيط الهندي وتحقق للبرتغال ربحًا وفيرًا باستيراد احتياجاتها في المواد الاستهلاكية من آسيا، وأهمها التوابل، وتبيعها بأسعار لا يقوى البندقيون على منافستهم فيها، فضلًا عن القوى التي تعود على البرتغال فيما لو تحقق هذا الحلم.

لاح هذا الحلم في سنة ١٤١٥ وأخذ ينمو ويتجسم تدريجيًّا وحقق البرتغاليون- الذين حنكتهم صناعة صيد السمك في المحيط الأطلنطي- أول اتصال مع أفريقيا عام ١٤٤٤-١٤٤٥ عندما وصلوا الرأس الخضر (تقع في غربي أفريقيا بين نهري سنغال وجمبيا) وبعد ذلك بقليل نزلوا إلى ساحل الذهب سنة ١٤٧١ بعد استعمارهم لجزر الرأس الأخضر التي تبعد ٤٠٠ ميل عن الساحل الغربي واتخاذها قاعدة للتجارة مع مالي.

ولما اكتشفوا ثروة غينيا من الذهب، بدأوا تشييد الحصون والقلاع على الساحل لصد المغيرين الأوروبيين. كما أتموا اتصالهم في ساحل بنين والكونغو، وبذلك تحققت لهم الفرصة لتوسيع تجارتهم وزيادة نفوذهم. وفي عام ١٤٨٨ تمكن بارتلو ميوديز من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح وتمكن بيدرو دا كوفيلهان من الوصول إلى الهند والحبشة بواسطة الطريق التقليدي المعروف وعندئذ اتفقت مصر مع البندقية للانقضاض بحريًّا على البرتغال في المحيط الهندي، ولكن انهزم الأسطول سريعًا في موقعة ديو سنة ١٥٠٩. وبذلك انطلقت يد البرتغاليين للتوغل في أفريقيا من أي نقطة تشاء سواء على الساحل الغربي أو ساحل البحر الأحمر كما سيطرت على تجارة المحيط الهندي.

بدأت البرتغال تفقد تلك السيادة عندما ظهر العثمانيون الأتراك الذين كونوا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر قوة عسكرية هائلة في آسيا الصغرى والذين احتلوا مصر سنة ١٥١٧. وباحتلالهم مصر تمكن الأتراك من التقدم غربًا نحو المغرب وكذلك نحو الجنوب والجنوب الشرقي حيث البلاد الواقعة على ساحل البحر الأحمر واستطاع الأتراك تكوين

أسطول بحري لا يقل قوة عن جيوش البرتغال معتمدين في ذلك على بحارة من اليونان والجزر اليونانية، ثم أخذ الباشوات الأتراك يفدون القاهرة بانتظام وإن كانت القوى الفعلية في أيدي المماليك وتدهورت الزراعة في مصر في عصر الأتراك وأصبحت طبقة الجنود التي دخلت حتى الشلال الثالث على نهر النيل هي الطبقة المتحكمة.

لم يستطع الأسطول التركي تقييد حرية الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي، لكنه تمكن على الأقل من منع الأسطول البرتغالي من دخول البحر الأحمر وقد باع الأتراك الأسلحة النارية في أفريقيا وقويت بذلك الشعوب الإسلامية.

وفي بادئ الأمر، لم يكن لتجارة الأوروبيين تأثيرا كبيرا على تجارة غينيا وكانت احتياجات أوروبا من المواد الخام للصناعة عبر البحار عبارة عن العقاقير والعطور والمحصولات الاستوائية مثل التوابل والسكر. ولم تكن شعوب أفريقيا مدربة لتصنيع هذه الخامات وإعدادها للتصدير مثلما تفعل آسيا. وقد وقفت حرارة الجو والأمراض وسوء المواصلات حائلًا دون توغل الأوروبيين لأعداد ما يحتاجونه للتصدير. وقد أدخلت الزراعة في أفريقيا الغربية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر في السواحل والجزر المقابلة للساحل. وقد نقل الإسبانيون نظام الزراعة من جزر كناريا إلى جزر الهند الغربية كما نقلها البرتغاليون من جزر الرأس الأخضر وخليج غينيا إلى البرازيل.

وأما من ناحية التجارة فلم تكن أفريقيا الغربية تقدم غير العاج

والذهب. وفي القرن الثاني عشر نقص الصادر من العاج واقتصر التصدير على الذهب من ساحل الذهب الذي تركزت فيه مصانع أوروبا.

وفي القرن السابع عشر، بدأ يتغير هذا الوضع عندما زاد طلب الأوروبيين على الأيدي العاملة لزراعة المناطق الاستوائية الأمريكية. فكانت المستعمرات الإسبانية تزود الإقبال على السكر؛ إذ أن زراعته تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة وقد استحوذت تجارة الرقيق عبر الأطلنطي على نشاط الأوروبيين. فقد وصل تسعمائة ألف من الرقيق إلى أمريكا عام ١٦٠٠ وبلغ عددهم ٢.٧٥ من المليون في القرن السابع عشر ثم بلغ سبعة ملايين في القرن الثامن عشر وهبط إلى أربعة ملايين في القرن التاسع عشر.

وكان يفقد منهم في الطريق عبر المحيط ما يقرب من ١٥ إلى ٢٠% في كل رحلة بخلاف ما يفقد منهم أثناء المطاردة والصيد والوقوع في الأسر ثم احتكر الهولنديون تجارة المحيط الأطلنطي وحرك نجاحهم حقدًا للإنجليز والفرنسيين الذين انتقلت إليهم تلك التجارة في القرن الثامن عشر. أما البرتغاليون، فقد ظلوا على تجارة الرقيق في نطاق ضيق بين أنجولا وسان تومي إلى البرازيل ولكن كان القدر الفعلي للإنجليز في تلك التجارة السوداء حتى أن بواخرهم كانت تنقل أكثر من نصف الرقيق إلى أمريكا، وهذا بالطبع يعكس صورة النمو المتزايد بالتجارة البحرية في بريطانيا وتركيز النشاط على ساحل الذهب، والذي عرف باسم ساحل الرقيق لكثرة ما صدر منه من الرقيق.

كان الأوروبيون يجمعون الرقيق بمعاونة الملوك والتجار واقتصر نشاط الفرنسيين على السنغال بمنطقة جمبيا، وقد توغلوا فيما يقرب من ثلاثمائة ميل على نهر السنغال وجاءت النتائج مخيبة للآمال؛ إذ أن المنطقة كانت فقيرة سواء في السلع التجارية أو في تعدد السكان.

وكان الأوروبيون يفضلون البقاء على السواحل داخل حصون يقيمونها على السواحل عند مصب الأنهار بجوار القرى الأفريقية التي تطورت حالتها نتيجة لقيام التجارة فيها وأخذ الأفريقيون بأسباب المعيشة الأوروبية يتبادلون معهم الملابس والمشروبات الكحولية والأسلحة النارية.

بدأ الأوروبيون أولًا في تصدير الرقيق من المجرمين. لكن عندما زاد الطلب على الرقيق، بدأ تجار الرقيق والملوك يستعملون الأسلحة النارية في أسر سكان الأجزاء الداخلية ويصدرونهم كعبيد. وعلى الرغم من كثرة ما كان يصدر من الرقيق– فمثلا كانت تفقد غينيا كل عام ١٠٠ ألف شاب وشابة خلال القرن الثاني عشر– فإن ذلك لم يؤثر على تعداد السكان بما يفقده كل عام من أفراد.

ولعل أكثر ما يمتاز به التطور الذي أصاب دول أفريقيا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ هو نمو تلك الدول وامتدادها للداخل إذ لم تحتمل تلك الدول تجارة الأوروبيين المسعورة في الرقيق وإغاراتهم المستمرة على المناطق الساحلية لجمع الثروات من وراء تلك التجارة وعلى ذلك كانت مراكز القوى في داخل القارة، ولكن خلال عام ١٦٨٠ و١٧٣٠ قامت دولة أكوامو وإن كانت لم تعمر كثيرًا فامتدت على طول الساحل إذ

فشلت دولة أكوامو في إيجاد نظام يكفل لها الحياة ويحميها من إغارات تجار الرقيق. ثم قامت بعدها دولة أشانتي في القرن الثاني عشر واستفادت من خبرات الدولة السابقة. فامتدت شمالًا وضمت ولايات بونو وباندا وجونجا وداجومبا ثم أخذت تتجه صوب الجنوب لتتصل بتجارة أوروبا.

وفي الشرق قامت دولة أويو في القرن السابع عشر. وفي القرن الثامن عشر، تحولت تجارة رقيق نيجيريا من (بنين) إلى موانئ باداجري ولاجوس. وبين أويو وأشانتي قامت دولة (داهومي) التي جذبتها التجارة مع أوروبا جنوبًا على الساحل.

وفي نهاية القرن الثامن عشر، دفع النشاط الأوروبي التجاري إلى التوغل داخل القارة ولا يمكن إغفال نشاط الإرساليات التبشيرية في غينيا وكان البرتغاليون أول من بعث الإرساليات للتبشير إلى (بنين) ثم انسحبت إلى (وارى) وامتدت إقامة الإرسالية ولم تحقق نجاحًا كبيرًا في إقامة دولة مسيحية، سواء في غينيا أو في الكونغو، بقدر ما حققت نجاحًا على الساحل في مقابل جزيرة الرأس الأخضر.

ولم يكن للأوروبيين الذين هاجروا إلى غربي أفريقيا هدف سوى جمع المال وتصدير المنتجات وخيرات البلاد. وقد نجح الأوروبيون في إيجاد طبقة من الشعب تشبه الأوروبيين في المظهر الخارجي في حين بقي معظم الشعب على حاله من الجهل والبدائية.